من كلام الجاحظ

Fragments de Djâhiz

هذا كلام للجاحظ في كتابه «المعنون بالاخبار» نقله عنه الامام المهدي لدين الله احمد بن يحيى في كتابه « المنية والامل » قال :

قال الجاحظ ان الناس يخصون الدين من فاحش الخطأ وقبيح المقال مالا يخصون به سواه في جميع العلوم والاداء والآداب والصناعات . ان الفلاح والصانع والنجار والمهندس والمصور والمكاتب والحاسب من كل امة وملة لاتجد بينهم من التفاوت في العقل والصناعة ولا من فاحش الخطأ وافراط النقص كالذي تجده في اديانهم وفي عقولهم عند اختيار الاديان . والدليل على ماوصفت لك ان الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأي والادب والاختلاف في الصناعات اربع: العرب والهند والروم والفرس . ومتى نقلتهم من الدنيا الى علم الدين حسبت عقولهم مختبلة وفطرهم مسترقة كالعرب فانها مخصوصة باجود البيان الذي ليس كمثله بيان واللغة التي ليس مثلها في السعة لغة وقيافة الاثر مع قيافة البشر وليس في الارض قوم غير العرب يرون المتباينين في الصورة المتفاوتين في الطول والقصر المختلفين في الالوان فيعلمون ان هذا الاسود ابن لهذا الابيض وهـذا الطويل ابن لهذا القصير وهذا القبيح عم هذا المليح . وللعرب الشعر الذي لايشاركهم فيه احد من العجم . وقد سمعت للعجم كلاماً حسناً وخطباً طوالا يسمونه اشعاراً فاما ان لهم شعراً له اعاريض معلومـة واوزان معروفة اذا نقص منها او زاد حرف او تحرك ساكن او سكن متحرك كسره وغيره فليس يوجد ذلك إلّا للعرب خاصة دون غيرهم وليس في الارض قوم عني بذم جليل القبيح ودقيقه وبمدح دقيق الحسن وجليله مثل العرب حتى لو جهد أفطن البرية واعقل الخليقة ان يذكر معنى لم يذكروه لما اصابه .

وللعرب من صـدق الحس وصواب الحدس وجودة النظر وصحة الرأي مالا يعرف لغيرهم ولهم العزم الذي لايشبههم فيـه عزم والصبر الذي لايشبهه صبر والجود والانفة والحمية التي لايدانيهم احد فيها ولا يتعلق بها رومي ولا

هندي ولا فارسي بل هذه الامم كلها يخالف العرب . ثم لهم من بعد الهمم والطلب بالطوائل ما ليس لغيرهم مع المعرفة بمساقط النجوم والعلم بالانواء وحسن المعرفة مما يكون منها للاهتداء ولهم حظ العربية مع الحفظ لانسابهم ومحاسن اسلافهم ومساوئ اكفائهم والتعيير بالقبيح والتفاخر بالحسن ليجعلوا ذلك عوناً لهم على اكتساب الجميل واصطناع المعروف ومزجرة لهم عن اتيان القبيح وفعل العار ليؤدبوا اولادهم بما ادبهم به آباؤهم ثم الحفظ الذي لايقدر احد على مثله وان دونه وخلده في كتبه لاتصاب إلّا فيهم وذلك ان الغي والبيان في كل قوم منثور متفرق ولست ترى واحداً في البادية غبياً رأساً على انهم وان تفاوتوا في البيان فليس بمخرج اخسهم الى العي . وفيهم ايضاً خصلة لا تصاب إلّا فيهم وذلك ان سفلة كل جيل وغفلة كل صنف اذا اشتد تشاجرهم وطالت ملاحاتهم وكثر مزاحهم والدعابة بينهم وجدتهم يخرجون الى ذكر الحرمات وشتيمة الامهات واللفظ السيء والسفه الفاحش ولست بسامع من هذا حرفاً في البادية لا من صغيرهم ولا من كبيرهم ولا جاهلهم ولا عالمهم وكيف يقولون هذا والحيان منهم يتفانيان في دون ذلك . وليس في الارض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم وكل شيء تقوله العرب فهو سهل عليها أو كطبيعة منها وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه . وللعرب البديهة في الرأي والقول خاصة ولهم الكنى في الاسماء خاصة وقد زعم قوم من الفرس ان فيهم الكنى واحتجوا بقول عدي بن زيد :

اين كسرى وكسرى الملوك ابو سا سان ام اين قبله سابور؟

وليس كذلك انما كناه عدي بن زيد على عادته حين اراد تعظيمه ان صحت رواية هذا البيت فاما ابو عمرو بن العلاء ويونس النحوي وابو عبيدة فرووا جميعاً ان عدياً قال:

اين كسرى كسرى الملوك انو شر وان ام اين قبله سابور؟

فاخطأ الراوي الرواية وقيل ذلك عنه من لا علم له وليس في الارض عجمي له كنية إلّا ان تكنيه العرب .

قال الجاحظ وهم ماحكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البيان

وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الانفة يعبدون الحجارة ويحلفون بها ويتحامون كسرها وينكسون لها ويدعونها الهة ويخاطبونها ولا يتجبرون عليها وينكرون على من ينقصها ثم مع ذلك ربما رموا بها واتخذوا سواها ثم كانوا يرون ان الرجل منهم اذا مات فلم يأخذ ولية بعيرة فيحفر له حفرة ثم يقيده على شفيرها ويطرح برذعته على وجهه ورأسه ثم لا يسقيه ولا يعلفه حتى يموت. ان ذلك الرجل الميت يجيء يوم القيامة حافياً راجلا فاذا فعل ذلك اتى راكباً وذلك البعير يسمى البلية .قال ابن مقبل: كالبلايا رؤوسها في اللوايا .وقال آخر:

منازل لا ترى الانصاب فيها ولا حفر البلايا للمنون

ويقولون ايما رجل قتل فلم يطلب وليه بدمه خلق من دماغه طير يسمى هامة فلا يزال يزقو على قبره وينعى اليه حتى يبعد قال شاعرهم :

فان تك هامة بهراة تزقو فقد ازقيت بالمروين هاما

ومن ثم كانوا يستسقون للميت وكانوا يقولون ايما شريف قتل فوطئته امرأة مقلات، عاش ولدها .قال بشر بن ابي حازم الاسدي :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر

وكانوا يقولون ان الرجل اذا ملك الفاً من الابل ان السواف(١) يأتي على ابله فيفقأ عين الفحل فان زادت على الف فقأ عينيه جميعاً فذلك المفقأ والمعمى قال الشاعر :

فقأت لها عين البعير تفقداً وفيهن زعلا المسامع والجرن(كذا)(٢)

وكانوا اذا اجدبت بلادهم، فارادوا الاستمطار، اخذوا بعيراً اورق، فشدوا في اذنيه العشر ،والسلع، وصعدوه في الجبل، واشعلوه في اذنيه النار ،ودعوا وتضرعوا ويزعمون انهم ان لم يفعلوا ذلك ، لم يستجب الله منهم (٣)

وكانوا ، اذا وقع العر في الابل ، يأخذون بعيراً سليماً لاعيب فيه، فيقطعون مشفره ثم يكوونه ليذهب العر عن سائر الابل والا فشافيها . قال النابغة :

وحملتني ذنب امرئ وتركته كذي العر يكوى غيره وهو راتع

وكان الرجل منهم اذا غزا ، عقد خيطاً في ساق شجرة ،فاذا رجع ورآه منحلا

١) السواف : الموتان في الابل (٣) الذي في كتب الادب ان العرب يفعلون ذلك بثيران الوحش لا بالابل . (ل . ع) (٢) في الاصل كذا : وهو غلط .

فقد خانته قعيدته بزعمهم ، وان رجع ووجده بحاله ، فقد حفظت نفسها له .

قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان هممت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرتم

والرتمة : اسم الخيط بعينه .

وكانوا يقولون: اذا احب الرجل المرأة واحبته . فان لم يشق عليها برقعها وتشق عليه رداءه ، فسد حبهما ، وان فعلا ذلك دام حبهما . قال عبد بني الحسحاس :

وكم قد شققنا من رداء ومئزر ومن برقع عن طفلة غير عانس

اذا شق برد شق بالبرد مثله دواليك حتى كلنا غير لابس

هذا مع ايمانهم بالعدوى (١) والجن ، وتكون الغيلان ، وان الجن هي التي طردت اهل وبار (٢) عن ديارهم ، وصارت الجن سكانها فليس بها الا الجن والوحش .

ومع منحبهم في الحام والبحيرة ، والوصيلة ، والسائبة ، وسيأتي تفسيرها . وامور كثيرة لا يحتاج الى ذكرها ، وانما اردنا ان تعرف الناس التفاوت مابين حال العاقل في دنياه ودينه ، فاذا صار الى التكذيب والتصديق . والايمان والكفر ، صار الى غير ذلك الذي كان عليه من التمييز .

قال الجاحظ : ثم ملنا الى الهند ، فوجدناهم يقدمون في الحساب والنجوم ، ولهم العلم الهندي خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم اسرار الطب ، وعلاج فاحش الادواء خاصة ، ولهم خرط التماثيل ، ونحت الصور ، مع التصوير في الاصباغ وكوى المحاريب (٣) واشباه ذلك .

ولهم الشطرنج ، وهو اشرف لعبة ، واكثرها تدبيراً .

ولهم صنعة السيوف الهندية .

ولهم الكنكنكة وهي وتر واحد على قرعة ، فيقوم مقام العود والصنج .

ولهم ضروب الرقص والخفة .

ولهم الثقافة خاصة .

---

١) في الاصل : « بعده » وهو خطأ . (٢) في الاصل: « ديار » وهو وهم ظاهر .
(٣) في الاصل : وكرى المحاربة ، وهو غلط .

ولهم السحر والترصد والخطب الطوال .

ولهم الرأي والنجدة والصبر ، وليس لاحد من الصبر ما لهم ،

ولهم الاخلاق المحمودة والسواك والخضاب .

وهم مع ماذكرنا اصحاب بددة وهي جمع بد . والبد الصنم، ينحتونها بايديهم ثم يعبدونها ويجعلون لهم بيوتاً كمساجد المسلمين ، وفيها بنات رؤسائهم موهوبة لتلك البددة على وجه التقرب بها ، والنذر ، والكفارات . وتلك النساء واقفة للفساد والفجور يأمرها اهلها بذلك . ويرون ان لهم فيه اجراً عظيماً . ولهم عباد ورهبان متجردون عن اللباس يدعون الزهد في الدنيا ، لايمسون الماء ويتبركون باوساخهم ، ويختبرونهم بتلك النساء وملاعبتها ، فمن اشتاق من اولئك العباد الى تلك النساء ، وهاج فقد كفر كفراً عظيماً ، واتى باعظم منكر ، والحقوه انواع العذاب والنكال ، وقتلوه . هذا في الزهاد خاصة ، فاما غيرهم منهم ، فلا ينكرون عليه الفجور بتلك النساء ، واذا اشتاق الهنود الى زيارة موتاهم ، اضرموا النيران ، وحملوا معهم الهدايا واللطائف ، وتضمخوا بالصندل وتكفنوا ، ورموا بانفسهم في تلك النيران ، ويزعمون انهم يرجعون الى اهليهم اذا قضوا وطراً من زيارة موتاهم .وهذا عجيب في جميع الهنديين، اذ يرى دقة النظر في دنياهم وجهالاتهم في دينهم .

قال الجاحظ : ثم ملنا الى الروم فوجدناهم اطباء وحكماء ومنجمين ولهم اصول اللحون وصنعة القرسطون .

وهم الغايات في التصوير ، يصور مصورهم الانسان ، حتى لايغادر شيئاً ، ثم لايرضى بذلك حتى يصوره شاباً . وان شاء كهلا . وان شاء شيخاً ، ثم لايرضى بذلك حتى يصوره باكياً ، او ضاحكا ، ثم لايرضى بذلك حتى يجعله جميلا ناعماً ، عتيقاً ، ثم لايرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت ،وضحك الخجل ، وبين المتبسم والمستعبر ، وبين ضحك السرور ، وضحك الهازئ ، وضحك المتهدد ، فيركب صورة في صورة ، وصورة في صورة ، وصورة في صورة .

ثم لهم في البناء ماليس لغيرهم ، ومن الخرط ، والنجر ، والصناعة ، ما ليس

لسواهم ثم هم مع ذلك اصحاب كتاب وملة ، ولهم من التدقيق في المكيدة ما ليس لغيرهم . ثم هم مع ذلك اجمع يرون ان الالهة ثلاثة : بطن اثنان (كذا) وظهر واحد (كذا) ، كما لابد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء ؛ فكذلك جوهر الآلهة .فزعموا : ان مخلوقاً استحال خالقاً ،وان عبداً تحول رباً ، وان حديثاً انقلب قديماً ، إلّا انه قد قتل . وصلب بعد هذا ، وفقد (كذا) وجعل على رأسه اكليل الشوك ، ثم احيا نفسه بعد موته . وانما امكن عبيده من اخذه واسره وسلطهم على قتله ، وصلبه ليؤاسي ابناءه بنفسه ، وليحبب اليهم التشبه به ، وليستصغروا جميع ماصنع بهم (كذا) ،ولئلا يعجبوا باعمالهم فيستكثروها لربهم ، فكان عذرهم اعظم من جرمهم (١) . فلولا انا رأينا باعيننا ، وسمعنا بآذاننا لما صدقنا . ولا قبلنا ان قوماً متكلمين ، واطباء ، ومنجمين ، ودهاة ، وحساباً ، وحذاق كل صنعة ، يقولون في انسان رأوه يأكل ويشرب ، ويبول ، وينجو ، ويجوع ، ويعطش ، ويكتسي ، ويعرى ، ويزيد ،وينقص ، ثم يقتل بزعمهم ويصلب . انه رب خالق ، وانه قديم غير محدث ، يميت الاحياء ، ويحيي الموتى ، وان شاء ... في الدنيا ، ثم يفتخرون بقتله... اليهود . (كذا . وفي هذه العبارات العائدة الى الروم كلام مغلق غير واضح ولا متسق . وما كان منقطاً هو محذوف في الاصل . ل . ع)

قال الجاحظ : ثم ملنا الى فارس ، فوجدنا هناك العقول التي لاتبلغها عقول، والاحلام التي لاتشبهها احلام . والسياسة العجيبة . والملك المؤيد بتدبير الامور ، والعلم بالعواقب . ثم كانوا مع ذلك يغشون الامهات ، ويأكلون الميتة ، ويتوضأون بالابوال ، والماء موجود عندهم ، ويعظمون النار ، وهم اظهروها ، وان شاؤوا اطفأوها . ويقولون ان الله كان وحده لاشيء معه ،

١) تأنس الكلمة الالهية يشبه تأنس الكلمة او الفكرة البشرية ، فالفكرة قد تصور بالكتابة او الرمز او الحس الى غير ذلك . وتبقى هي اياها بمزيتها الاصلية ، يعني انها تبقى في ذاتها كما كانت على حد صفات النفس الصادرة منها اي تبقى شيئاً لايقع تحت الحس الظاهر بل متصفاً بصفات الروح . وهكذا يكون تجسد الكلمة الالهية .ومنه الآية : « وكلمته القاها الى مريم وروح منه » (ل . ع)

فلما طالت وحدته استوحش؛ فلما استوحش فكر. فلما فكر تولد من فكرته اهرمن، وهو ابليس. فلما مثل بين يديه اراد قتله. فلما اراد قتله امتنع. فصالحه الى اجل معلوم، واودعه الى مدة مسماة. على ان لا يمتنع عليه اذا استوفى الاجل، وبلغ المدة. ثم ان اهرمن نوى الغدر، وذلك شيمته فانشأ يخلق اصناف الشر، يستمد بها عليه. فلما عرف بذلك منه. انشأ اصناف الخير، ليضع بازاء كل جند جنداً، وله بعد ذلك فضل قوته، وانه يسمى القديم دونه.

ثم قالوا في قسمة العوالم عندهم، وفي اسمائها وجواهرها، وهيئاتها، وفي خلق مهنه ومهينه (١) وهو آدم وحواء، وفي اسوسن (٢) المنتظر عندهم، مالا يستطيع وصفه احمق منقوص، ولا عالم تام، ولو جهد كل جهده، واستفرغ كل قوته.

قال الجاحظ: ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس باكثر (كذا، ولعلها بامر) الدين وان شأنهم تعظيم الرجال، والاستسلام للمنشإ، والذهاب مع العصبية والهوى، والرضا بالسائق الى القلوب؛ واستثقال التمثيل، وبغض التحصيل، ما نجد من اعتقاد اكثر البصريين، وسوادهم، لتقديم عثمان بن عفان، ومن اعتقاد اكثر الكوفيين لتقديم علي بن ابي طالب (ع) ومن اعتقاد اكثر الشاميين لدين بني امية، وتعظيم عثمان، وحب بني مروان اه.

زنجان (ايران) في ٧ ربيع الآخر ١٣٤٨ ابو عبدالله الزنجاني

(لغة العرب) تأخر نشر هذه المقالة لوقف الجزءين الاخيرين من هذا المجلة على الفهارس ولاتمام ما كان حضرة الدكتور داود بك الجلبي قد بعث به الينا من رسائل الجاحظ.

فنطالب المعذرة من حضرة صديقنا الجليل الشيخ ابي عبدالله.

---

١) المشهور: ميشه وميشانه. راجع الملل والنحل للشهرستاني ص١٨٢ طبع الافرنج وراجع معجم فلرس اللاتيني في ميشه وميشانه (٢) اسم المنتظر عند المجوس الزرادشتية «اشيذربكا» قال الشهرستاني (ص١٨٨): «ومما اخبر به زرادشت في كتاب «زندوستا» قال: سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه اشيذربكا ومعناه: «الرجل العالم» يدين العالم بالدين والعدل؛ ثم يظهر في زمانه «بتيارة» فيوقع الافة في امره وملكه عشرين سنة ثم يظهر بعد ذلك «اشيذربكا» على اهل العالم، ويحيي العدل، ويميت الجور، ويرد السنن المغيرة الى اوضاعها الاول، وينقاد له الملوك ويتيسر له الامور، وينصر الدين الحق ويحصل في زمانه الامن والدعة، وسكون الفتن وزوال المحن، والله اعلم.» اه (ل. ع)